الفصل السادس

النقد الأدبى بين العلم الديديولوجيا

١- إذا كانت الاتجاهات السوسيولوجية والنفسية والشكلية فى النقد الأدبى المعاصر قد نهضت على دعائم بنيوية علمية، فإن هذه الدعائم قد سمحت لهذه الاتجاهات أن تتحرر من طابعها الأيديولوجى الذى كان قائما لدى بعض الاتجاهات النقدية قبل ستينيات القرن الماضى. ويمكن أن نعتبر جهود لوسيان جولدمان مظهرا من بين مظاهر تأسيس نقد سوسيولوجى ذى طابع علمى، لا طابع أيديولوجى. فرغم أن جولدمان يعتمد فى جانب كبير من فكره على فكر ماركس ولو كاتش إلا أننا نراه يحاول أن يكشف عما تنطوى عليه النظرة الماركسية للأدب من نزعة علمية مستندا فى ذلك إلى الدور "الابستيمولوجى" الذى لعبته فكرة البنية فى النظرة الماركسية للأدب.

وبدون شك أن جولدمان ماركسى، ولكن لا شك أيضا أن الجهود التى قام بها قد استطاعت أن تمد وجهة النظر الماركسية للأدب، بالنظرية الإبستيمولوجية التى كانت تفتقر إليها. فهو قد قام بمحاولات جديدة من أجل صبغ الماركسية الأدبية بصبغة بنيوية معاصرة.

وقد قدم لنا جولدمان عدة مؤلفات هامة، نذكر من بينها "الماركسية والعلوم الإنسانية "١٩٧٠-" نحو سوسيولوجية الرواية "١٩٦٤ -" بحوث ديالكتيكية" سنة ١٩٥٩" الابداع الثقافى فى المجتمع الحديث "١٩٦٠ -" العلوم الإنسانية والفلسفة "١٩٦٥.

وقد نلاحظ وجود سمة مشتركة بين أغلب هذه المؤلفات إلا وهى دراسة وجهة النظر الماركسية للأدب دراسة نقدية راجيا أن يخلص النقد السوسيولوجى للأدب من طابعه الأيديولوجى، والانصراف به نحو العلم وموضوعة ونحو الارتباط بواقعة العينى، فعاد النظر فى مفهوم (الأدب الطبقى) وفرضية (الأدب يعكس المجتمع) وعمل على تحديد موقعها الحقيقى بين الايديولوجيا والعلم، وكان ذلك يحتم عليه أن يسعى جاهدا فى سبيل القيام بعمل نظرى جديد أن يجمع بين الدقة والصرامة من جهة وبين الرغبة فى التأسيس المنهجى من جهة أخرى. ومن هنا فقد وقع فى ظن جولدمان أن المهمة الأساسية للنقد السوسيولوجى للأدب اليوم هى القيام بدراسة ابستيمولوجية للأدب فى المجال النظرى من أجل القاء المزيد من الضوء على كافة المفاهيم الأدبية الماركسية، ليخلع على سوسيولوجيا الأدب شيئا من الوجود أو الكيان النظرى، الذى ما زال يفتقر إليه ذلك الميدان.

وبفضل جهوده فى جامعة بروكسل والمدرسة العليا بباريس استطاع أن يخرج سوسيولوجيا الأدب من جمودها المذهبى ويمضى بها نحو آفاق جديدة من البحث العلمى النظرى والتجريبى، مستلهما فى ذلك بعض مبادئ (البنيوية) ومستعيرا من بعض النقاد المحدثين (مثل لوكاتش ورينية جيرار) مفهوم (الجنس الروائى) ومفهوم (البطل الأشكالى) ومفهوم (البنية الدالة) التى سمحت له فيما بعد بإرساء دعائم نظرية للنقد السوسيولوجى للأدب أو على الأصح القيام بوضع أسس جديدة فى معالجة الآثار الأدبية معالجة سوسيولوجية، وربما كانت القيمة الهامة للبنيوية والماركسية حسب رأى جولدمان، إنها قد استطاعت نقل سوسيولوجيا الأدب من الوضع الايديولوجى إلى الوضع العلمى حتى أصبحت المادية الجدلية فى تحليل الظواهر الأدبية والثقافية من النظريات العامة للعلوم.

أن الواقع الاجتماعى الذى يحتوى الظواهر الأدبية مؤلف من مجموعة من الجوانب الاقتصادية، والسياسية والثقافية والنظرية، وكل جانب من هذه الجوانب إنما يتم داخل كلية أو على الأصح داخل "بنية" الكل الاجتماعى وفى رأى جولدمان

أن تلك البنيات المتعددة تبدو بحكم اندماجها فى بنية المجتمع الكلى واقعة تحت تأثيره، ومحددة جزئيا على الأقل، من خلال فعله فيها وسيطرته عليها، ولكن مع هذا يبقى لكل منها بنيته الخاصة بمعنى أن لكل جانب بنيته المستقلة نسبيا. وهذا يعنى أن سوسيولوجيا الأدب أصبحت بمثابة دراسة بنيات الظواهر الأدبية وبنيات واقعها الاجتماعى فى جميع علاقاتها بشتى هذه البنيات الأخرى وكل تأثير لبنية على أخرى يتحدد بمقتضى العلاقة النوعية التى تجمع بينهما وبين باقى البنيات الأخرى من جهة، وبينها وبين بنيات الكل الاجتماعى من جهة أخرى.

هذا إلى أن للبنية الاقتصادية بعد هام فى تحديد البنيات الجزئيـة الأخـرى بل تعتـبر أهم البنيات فى الواقع الاجتماعى، حتى أن جولدمان يفسر تطور الشكل الروائى بتطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الصناعى الحديث، وكأن البنية الاقتصادية عند جولدمان هى التى تحدد لنا نمط الفكر، ونمط الأساليب الأدبية.

ومفهوم البنية الاقتصادية عند جولدمان يشير إلى مجموعة من الظواهر القابلة للملاحظة التجريبية ولا يشير إلى مجرد تصور علمى، وحين يتحدث جولدمان عن البناء الروائى والبناء الاقتصادى يعتمد على فكرة الربط بين بناء الرواية وبناء تبادل القيمة فى مجتمع يعتمد على الانتاج من أجل السوق، وهو بذلك يريد أن يبين لنا أنه من الضرورى أن ننظر بعين الاعتبار إلى الواقع الاقتصادى والاجتماعى على أنه بنية (أو تركيب طوبولوجى) وآية ذلك أن الفرد فى المجتمع الرأسمالى الحديث ولا سيما فى المجال الاقتصادى ليس هو الفرد الحقيقى أو الفرد العينى الذى يجئ ويشغل بعض المواقع التى تحدد من جانبها العلاقات الاقتصادية وشكل الانتاج.

فهذا الجانب يجعل العلاقات الحقيقية فى حياة البشر تميل إلى الاختفاء، لكى يحل محلها علاقات هابطة تبدو فى سلوك الأفراد المبدعين فى كل المجالات ويصبحون فى وضعية هامشية أو وضعية (اشكالية) نظرا لأن هذه العلاقة لا تقوم بينهم وبين

أناس حقيقيين بل بينهم وبين موضوعات أو أدوات ذات طابع رمزى. فهم بذلك لا يزيدون عن كونهم مجرد أساس للعلاقات البنائية فى المجتمع الذى ينتج من أجل السوق. وفى ذلك كله يظهر التفسير الجديد لوجهة النظر الماركسية للمبدع وعلاقته بإنتاجه الأدبى وبالمجتمع.

٢- فالأثر الأدبى فى نظر جولدمان لم يعد واقعة تاريخية وإنما أصبح "بنية" يشمل فى كل تكوين من تكويناته منطق باطنى خاص، وأنه لا يمكن فهم أجزاءه إلا بانتسابها إلى الكل البنائى. وأن الوصف الذى يتألف من كافة عناصره، إنما هو نمط انتظام وترابط بين هذه العناصر ترابطا محكما. وهذا ما يعنيه جولدمان حين يقول أن الكل البنائى فى الأثر يملك وحدة منتظمة مترابطة ذات دينامية واحده. فإذا أريد لماهية الأثر الأدبى أن تكون بناءا جزئيا لكل بناء كلى واسع فلابد فى الواقع من أن تكون هناك معطيات معينة تعتمد على الواقع التجريبى كى تبرز طبيعة العلاقة بين بنيات الأثر وبنية الشكل الاجتماعى.

والواقع أن جولدمان حين تخلى عن مفهوم الأثر باعتباره واقعة تاريخية، واعتبره نمطا بنائيا يعبر عن شخص مبدعه والجماعة التى يرتبط بها هذا الأخير، إنما كان يريد أن يميز لنا بين مفهوم الأثر بوصفه مفهوما "علميا" ومفهومه بوصفه مفهوما أيديولوجيا.

والحق أنه إذا كان ثمة مشكلة لا تكاد تجد لها حلا لدى جولدمان، فتلك هى مشكلة وضع أسس سوسيولوجية للأجناس الأدبية داخل النظرية النقدية، وهنا يحق لنا أن نتساءل هل يكون فى وسع مثل هذه السوسيولوجية العلمية أن تصبح هى نفسها نظاما علميا محضا. إننا قد لا نجد مانعا من التسليم مع جولدمان بأن السوسيولوجية الجديدة للأدب تتمثل فى مفهوم "الأثر بنية" الذى يبدو مرتبط ارتباطا ضروريا بنظرية المعرفة.

والواقع أنه إذا كانت السوسيولوجية الجديدة للأدب قد تخلت عن محاولة الربط

بين مضمون الوقائع الاجتماعية والتاريخية وبين مضمون الأثر، فما ذلك إلا لأن سوسيولوجيا الأدب عند جولدمان لم تعد مجرد تحليل ساذج لمظاهر العلاقة بين الأثر الأدبى والمجتمع. ولما كان الأثر بمثابة (بنية) لها نظام خاص فإنه من الضرورى البحث فى طبيعة ذلك النظام الخاص وفى طبيعة النظام الاجتماعى نفسه على ضوء العلية البنيوية السائدة فى ميدان العلوم الإنسانية وميدان الدراسات النقدية.

إن المبادئ التى وردت فى نظرية "جولدمان" تنصب كلها على جنس أدبى واحد إلا وهو الجنس الروائى، الذى يتميز على المستوى الفنى بخصائص معينة، هذه الخصائص تختلف عن الخصائص الفنية للشعر، وعن الخصائص الفنية للقصة القصيرة، وهذه بديهية ولكن هل يستطيع الناقد أو الباحث أن يغض النظر عن هذه الخصائص ويحلل الأثر بصورة عامة، ويصبح تحليل الجنس الروائى هو نفسه كتحليل الشعر أو القصة القصيرة؟ إذا كان الجواب بنعم فهذا يعنى أننا ننكر وجود الخصائص الجوهرية لكل جنس من أجناس الأدب.

حقا أن هناك رأى يرى بأن الأدب، رغم اختلاف أجناسه، إلا أنه يجتمع تحت جوهر واحد ويؤدى وظيفة واحده، وأن ما بينهما من اختلاف ما هو إلا اختلاف غير جوهرى.

ولكن هذه النظرة التى تركز اهتمامها على النظرة الوظيفية للأدب، تترك جانبا نظرية الأدب وخصوصيته، بينما الاتجاه السوسيولوجى الحديث يرى، أنه يراعى خصوصية الأدب.

والظاهر ان القصد من هذه العبارة ان الباحث يراعى فى تحليل مضمون الأثر ارتباطه بشكله ارتباطا عضويا غير منفصل، فينظر للبنيات اللغوية باعتبارها بنيات وجهها الكاتب توجيها يتفق وطبيعة موضوع الأثر الذى ينهض عليه.

وهذا يعنى أنه لم يتعرض لمسألة سوسيولوجيا الأجناس الأدبية. فالرواية التى

حدد لها تعريفا خاصا، ووضع لها أساسا نظريًا ساهمت بشكل فعال فى بناء أساس سوسيولوجى متين لذلك الجنس الأدبى. ولكن ذلك الأخير كما هو واضح لنالا يعتبر الأدب بإجماله، فالبحث عن أسس ومفاهيم سوسيولوجية للقصة والشعر مازال لم ينجز بعد. وإذا كانت العبرة بالأفعال لا بالأقوال فيجب أن نقرر أن البحوث السوسيولوجية الحديثة لا تزال تتجه نحو دراسة الرواية ولا زالت تعتبرها موضوعها الرئيسى. ولهذا نرى أن عبارة "سوسيولوجيا الأدب" عبارة لا تعبر عن المنجزات الفعلية للبحوث فى ذلك الميدان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نظر جولدمان للإبداع الأدبى من زاوية سيولوجيه محضة بينما ظاهرة الإبداع تضم عدة جوانب أخرى. لهذا وجب الأخذ بمبدأ التكامل والتساند الشائع فى ميدان العلوم الإنسانية، باعتبار أن ظاهرة الإبداع – كما ألمحنا سابقا – تتضمن العديد من الجوانب، مثل الجانب النفسى واللغوى والشكلى، والاجتماعى، والتاريخى، لهذا تدخل ظاهرة الإبداع فى مجال علوم متعددة، كعلم النفس، والاجتماع، والجمال، والنقد الأدبى والتاريخ،،، الخ.

وعلى هذا الأساس يصبح التفسير السوسيولوجى الجولدمانى للإبداع، تفسيرا يؤدى إلى "الوضعية النظرية" لا القوانين التى ينشدها الباحث فى مجال العلوم الإنسانية. لهذا نحن نرى أنه من الضرورى الاستعانة بالعديد من العلوم الإنسانية والعديد من المناهج أيضا لتفسير ظاهرة الإبداع بصورة عامة.